حفريات الرصافة

التقرير الأولي الثالث

بقلم

يوهانس كولوينتز وولف ويرث وولتر كارناب

تعريب وتلخيص قاسم طوير

القسم الأول

المبنى المركزي

سبق أن ذكرنا الأعمال التي أجريت في المبنى المركزي عام ١٩٥٦ في عددي الحوليات الثامن والتاسع ، حيث كشفنا آنذاك عن النصف الشمالي للكنيسة وما حولها ، ثم تابعنا العمل خلال سنتي ١٩٥٩ و ١٩٦١ للكشف عن النصف الجنوبي وبالتالي الكنيسة بكاملها وما يحيط بها من باحات وممرات . لقد تبين لنا بأن طبقات الردم التي تغطي هذا القسم لاتقل عن مثيلاتها في النصف الشمالي . فمثلاً لم يظهر أمامنا في الزاوية الجنوبية الغربية إلا الأساسات وبقايا منشآت القرون الوسطى الاضافية التي كانت تحيط بجميع أطراف الكنيسة إلى جانب ظهور بقايا بيت سكني مشيد داخل البهو الجانبي للكنيسة من نفس طراز البيت الذي سبق اكتشافه في

ملاحظة : فيما يتعلق بالأشكال يرجى الرجوع إلى المقال الأصلي في القسم الأجنبي من المجلة ـ المعرب ـ .

النصف الشمالي (انظر الشكل ١) . هذا ولا ترجع المنشآت الإضافية والبيت نفسه إلى ما قبل القرن الثاني عشر .

نتيجة لهذه الحفريات أصبح مخطط الكنيسة مكشوفاً بشكل كامل ما عدا الغرفتان الجانبيتان في الشرق (انظر الشكل ٣ ، ٤) اللتان لم نعمد إلى كشفهما بسبب التصدع الذي طرأ على الأجزاء العلوية من جدرانها الخارجية .

اسفرت بعض التحريات التي اجريت عام ١٩٥٤ داخل حنية الغرفة الشمالية عن ظهور حوض التعميد في حين تبين لنا خلو الغرفة الجنوبية من أي شيء من هذا القبيل . هذا وترتفع أرضية الحنية مقدار ٣٤ سم عن سوية أرض الغرفة . يوجد في الجانب الجنوبي لنفس الغرفة الجنوبية محراب مستطيل الشكل ضلعه العلوي على هيئة نصف قوس (انظر الشكل ٢) .

لم نتمكن من كشف الغرفة الملحقة بالكنيسة لنفس الأسباب التي منعتنا من كشف الغرفة الجانبية السابقة الذكر . تبدأ الجدران الخارجية من الزاوية الشمالية الشرقية للكنيسة لتسير باتجاه الشرق ثم تنحرف نحو الجنوب إلا أنه لم نجد أي أثر لترابط حجارة جدران الغرفة الملحقة مع جدار الكنيسة الأصلي بشكل يجعلنا نرجع بناءها إلى عصر متأخر خارج حدود مخطط الكنيسة . اضافة إلى ذلك هناك اختلاف ظاهر بين طريقة رصف حجارة جدران الغرفة الملحقة وجدران الكنيسة . هذا وتوجد ركيزتان (Pillars) في القسم الشرقي من الغرفة ترجع إلى عهد متأخر استخدمت فيه الغرفة لأغراض كنسية . فيما يتعلق بالغرض الذي أنشأت من أجله هذه الغرفة ليس من طريق أمامنا إلا سلوك باب الافتراض . يمكننا أن نعتقد بأنها كانت غرفة الشهداء لأننا نعرف تماماً بأن تقديس الشهداء في سورية شمل أيضاً شهداء المسيحية عبر الحدود الذي أدى الى بناء منشآت ملحقة بالكنيسة خاصة لحفظ بقاياهم . ففي كنيسة براد جرى في القرن الخامس الحاق مثل هذه الغرفة خصيصاً لتقديس الشهداء . هذا وهناك افتراض آخر حول هذه المشكلة وهو كون هذه الغرفة ملاصقة لغرفة التعميد الخاصة بالكنيسة ومتصلة معها بباب مما يجعلنا نفترض بأنها كانت خاصة بإقامة الشعائر والطقوس التي توجبها عملية التعميد أو ما يسمى (Consignatorium) إلا أن مثل هذه الغرف غير معروفة في سورية .

لقد عثرنا على بقايا كثيرة قسم منها بين طبقات الردم والقسم الآخر بين المنشآت المتأخرة التي تعود إلى القرون الوسطى . فمثلاً وجدنا ستة تيجان مستديرة من أصل الأثني عشر تاجاً التابعة لأعمدة الاكسدرا (Exedra) إلى جانب تاجين آخرين متشابهين تقريباً ويتمتعان بأوراق اكانتوس منتفخة في الاكسدرا الشمالية . أما في الاكسدرا الجنوبية المقابلة فقد عثرنا على تاج واحد تابع للعمود الشرقي (انظر الشكل ٥) . يختلف شكل هذا التاج عن أمثاله في الاكسدرا المقابلة بحيث تتخذ أوراق الاكانتوس فيه وضعاً مختلفاً تبدو وكأنها واقعة في مهب الريح إلا أنها حافظت بالرغم من ذلك على الشكل المنتفخ والمسننات الكبيرة التي تحلت بها أوراق التيجان الأخرى .

وأخيراً اكتشفنا في الاكسدرا الغربية وجود تاجين فقط محليين بنفس شكل الأوراق المنتفخة السابقة الذكر . اضافة إلى ما ذكرنا ظهر أمامنا اثنا عشر تاجاً لركائز وقطع ناقصة كبيرة الحجم تتصف أشكال أوراق الاكانتوس بصورة عامة بالاتساع والانتفاخ والحز العميق في الوسط أما في التفاصيل فهناك اختلاف واضح في كثير من النقاط سنعمد الى بحثها في كتابات أخرى .

من أصل عدد الجسور الرابضة فوق التيجان المستديرة عثرنا فقط على خمسة منها اثنين في الاكسدرا الشمالية واثنين في الاكسدرا الجنوبية وواحدة في الاكسدرا الغربية تشبه هذه الجسور أنواع الكورنيش فهي مزخرفة من أربع جهاتها (قناة ، صف من حبات اللؤلؤ ، افريز كونسول ، افريز مزدوج) كذلك وجدنا عدداً كبيراً من قطع الاحجار الضخمة تخص العقد الكبير (Archivolte) الخاصة بالاكسدرا . تتحلى هذه الاحجار جميعها بنفس الزخرفة المؤلفة بصورة عامة من صف مزدوج من حبات اللؤلؤ ثم حفر بارز عليه افريز من الأشكال الورقية ثم افريز عريض عليه تفرعات لاغصان العنب وشريط من المسننات . (انظر الشكل ٩ ، ١٠ ، ١١) لقد ظهر أمامنا أيضاً قطع كثيرة تابعة للمنافذ العليا للجدران ومن أهمها قطعة لحاملة يحلي وجهها الخارجي شكل صليب ضمن دائرة (انظر الشكل ١٣) . كما وجدنا سلسلة من سبعة قطع تيجان الركائز (Pillars) المنتصبة فوق هذه الكونسولات . تتصف هذه التيجان بكونها مزينة بأنواع

مختلفة لنموذج الأوراق الرمحية (انظر الشكل ١٤) . ما هو جدير بالذكر عثورنا على عدد من الاكتاف (Pilaster) مسطحة (انظر الشكل ١٥) وتتمتع باقنية مملوءة جزئيا . من المحتمل أن تكون هذه الاكتاف تابعة للمنافذ العليا للجدران . حافظ الافريز الموجود تحت مستوى المنافذ العلوية للجدران على مكانه الأصلي . تتألف العناصر التزيينية من (أوراق الاكانتوس المنتفخة ثم شريط زيك زاك وحبات اللؤلؤ ثم تحدب مزين بالأوراق النباتية) . وأخيراً لا بد من ذكر بعض القطع الحجرية الكبيرة مع بقايـا تعود إلى هيكل السقف من بين القطع هناك واحدة حافظت على سماكة الجدران بشكل كامل (انظر الشكل ١٨) لم نعثر على أية قطعة تشير إلى وجود سقف مقبب للقسم المركزي من الكنيسة بحيث كانت نظرية (سميث) و (سينديكوس) حول وجود أربع حوامل (أعمدة أو ركائز) مجرد توهم وخيال . كذلك لم نعثر في البهو المتوسط على أي أثر يشير إلى وجود الرقبة التي من المفروض ان تقوم عليها القبة . لهذا يضطر المرء كما سبق وفعل مندل (Mendl) ان يفترض وجود سقف مستو للقسم المركزي هذا .

يحيط بالمبنى المركزي من جميع جهاته باحة مرصوفة بألواح البلاط إلا أنه يمتد من ناحية الغرب وينحدر انحداراً خفيفـاً حتى الشارع الشمالي حيث يتصل به بواسطة عتبة يصل ارتفاعهـا إلى (٤٥ ر١م) . (انظر الشكل ١٩ ، ٢٠ ، ٢١) . هذا ولم يبق من تصوينة جدار هذه العتبة إلا قليلا بينما وجدنا مصبين للمياه في موضعهما وعلى مستوى أرضية الباحة واللذان يقودان مياه الأمطار والباحة إلى الشارع حيث تتجمع في قناة تبدأ من قاعدة أرضية الباحة ثم تسير على طول الشارع وتحت مستواه بـ ٩٩سم . أن الشارع نفسه غير مرصوف بالبلاط بل غطي بطبقة خليطة من الجص والحصى .

يدخل المرء إلى الباحة الأمامية عن طريق بوابتين تقع الأولى في الزاوية الشمالية الغربية والثانية في الزاوية الجنوبية الغربية للتصوينة . تتألف كل منهما من أربع ركائز (Pillar) ذات مقاييس مختلفة ضمن مخطط مربع الشكل ومتصلة مع بعضها بأقواس وجسور تخفيفية إلا أنه لم نعثر على أي أثر لأجزاء السقف . في كلا الحالتين كان المدخل قابلا للأغلاق . يصل المرء إلى الباحة بعد عبور المدخل عن طريق بضعة درجات (انظر الشكل ٢٢) .

هناك جدار من الأحجار المربعة يبدأ من الزاوية الجنوبية الشرقية للبوابة الشمالية ويتجه نحو

الشرق ليشكل حدود باحة الكنيسة . من أمام هذا الجدار ينطلق شارع ثانوي بمستوى أرضية البوابة والشارع الشمالي ويصل المرء إلى هذا الشارع عن طريق القوس الشرقي للبوابة . هذا وبقي القوس الشمالي للبوابة حيث يبدأ من هنا صف أعمدة الشارع الشمالي الا ان فتحات القوسين الشمالي والجنوبي اغلقت بالحجر الغشيم خلال القرون الوسطى أما الفتحة الشمالية التي تؤدي إلى الشارع الشمالي فقد بقيت مفتوحة .

ان الأوضاع تختلف بالنسبة للبوابة الجنوبية وذلك نظراً لقربها من أحدى زوايا مبنى الكنيسة . لقد عملت المنشآت المتأخرة التي أضيفت إلى هذا المكان خلال القرون الوسطى إلى تشويه وإزالة الكثير من الأساسات الأصلية . يصل المرء إلى الباحة من القوس الشمالي الجانبي . كذلك فقد بقي القوس الجنوبي مفتوحاً بشكل كامل ، ولكن عما اذا كان هنـاك صف أعمدة تنطلق من هذا المكان كما هو الحـال في البوابة الشماليه هذا مالم نستطع التثبت منه لأن المنشآت الاضافية المتأخرة قد أزالت كل أثر أصلي في هــذا الموقع وحتى خمسة أمتار من أمامه (انظر المخطط في الشكل ٣) .

إلا أننا عثرنا على بقايا بلاطات أرضية الى الشرق من هذا المكان تؤكد استمرار سير الباحة نحو الجنوب (انظر الشكل ٢٣)

تنتصب الكنيسة فوق باحة طليقة ومرصوفة ومرتفعة عن مستوى الأرض العـادي مقدار (١,٤٥ م) بحيث تبدو وكأنها مصطبة . هذا وتقوم فوق الأرضية مصطبة أخرى تحيط بالكنيسة برصيف يبلغ عرضه (٢,٥٠ م) . تحيط بالباحة الكبرى تصوينة من الأحجار المربعة المنحوتة ويبلغ أقل ارتفاع نقاطها (٢,٣٠ م) فوق مستوى الشارع . بهذا يتخذ الموقع شكل وحدة إنشائية مستقلة ومغلقة ، تنتصب الكنيسة طليقة بين أحضانها او يسمى بـ (Temenos) . يتمتع هذا النوع من الـ (Temenos) بماض عريق في سوريا بحيث يذكر بالتيمينوس الذي يحتضن بين أروقته معبد جوبيتر في دمشق (حالياً الجامع الأموي) أو معبد بل في تدمر . لقد تبنت العمارة المسيحية نفس الطريقة فيما بعد في بناء الكنائس الأولى في سورية كما هو الحال في كنيسة بيزوس في رويحه ، والكنيسة الجنوبيه في الأندرين . فيما يتعلق بالمنشآت التي أضيفت الى الموقع خلال القرون الوسطى فانها تحيط بالكنيسة من جميع أطرافها ثم تتسرب الى داخلهـا من الزاوية الجنوبية الغربية حيث كشفنا عن الكثير منها على طول الضلع الغربي للكنيسة وعن غرفة كانت قائمة فوق الدرج الذي يؤدي الى الباحه اضافة الى أربع دكاكين تجارية ممتدة على طول الشارع وغيرها من المنشآت التي تملأ الموقع هنا وهناك .

القسم الثاني

وصف المبنى المركزي

سبق أن تطرقنا إلى وصف المبنى المركزي بعد اختتام موسم الحفريات التي أجريت عام ١٩٥٦ ثم تابعنا الأعمال في نفس الموقع خلال ربيع ١٩٥٩ وخريف ١٩٦١ بحيث أصبح من الممكن اتمام وصف المبنى على ضوء النتائج الأخيرة.

أهم نتائج الحفريات الجديدة هو ما تبين لنا بأن الكنيسة تنتصب فوق مصطبة عالية قائمة فوق باحة واسعة مرصوفة بالبلاط إلى جانب التفاصيل التزيينية المنحوتة على جدار الكنيسة الخارجية مما يؤكد سلامة الذوق والميل نحو ما هو تجسيمي ومتكامل الأعضاء في العمارة كما هو الحال في بناء المعابد الوثنية في العصور الكلاسيكية.

ترتفع أرضية الباحة عن مستوى شارع البوابة الشمالية مسافة (١,٤٥ م) بحيث تبدو وكأنها شرفة Terrasse (انظر الشكل ٢٤، ٢١) هـذا وسبق أن تطرقنا في القسم الأول من هذا المقال الى ذكر أوصاف الباحة والبوابات الرئيسية وملحقاتها بالتفصيل.

يبلغ عرض أساسات جدران الكنيسة ٠,٤٥ م. ان سماكة الجدران القائمة فوقها تبلغ ٠,٩٥م. بهذا تبرز مسافة ١٥ سم من الأساسات نحو الخارج بحيث تبدو الكنيسة وكأنها قائمة فوق قاعدة، خاصة وان المصطبة تنخفض مسافة ٥٠ سم عن مستوى هذه الأساسات. أما من الداخل فيبدو الأمر من النظرة الأولى وكأن الأساسات تبرز عن سماكة الجدران إلا انه بعد التدقيق تبين لنا بأن بلاطات أرضية ابهاء الكنيسة تلتصق بالأساسات بارتفاعات مختلفة مما يؤدي الى سير غير متساوي الارتفاع لبروز الأساسات، وهذا ما نستطيع مراقبته بوضوح في الشمال الغربي وفي البهو الجنوبي الجانبي للكنيسة. اضافة إلى بلاط أرضية الكنيسة الداخلية التي كشفنا عنها خلال حفريات الموسم ١٩٥٦ في البهو الشمالي الجانبي وفي الجهة الغربية من الكنيسة ظهر أمامنا خلال المواسم الأخيرة بلاطات كبيرة في البهو المتوسط والجنوبي الجانبي، وأخيراً في الايوان الجنوبي للبيت الذي يعود إلى القرون الوسطى. لقد رصفت البلاطات في البهو المتوسط والغربي باتجاه طولاني ما عدا ظهور رصف معترض في البهو المتوسط. أما في البهو الشمالي والجنوبي فقد تم الرصف

كليا بشكل معترض باستثناء البلاطات التي تغطي القسم الشرقي للبهو الشمالي والواقعة مباشرة أمام الغرفة الشمالية والتي رصفت بشكل طولاني .

لقد رصفت جميع انحاء الكنيسة ببلاطات حمراء بشكل متساو ما عدا الأقسام نصف المستديرة للاكسدرات (Exedras) فانها تتمتع برصف متنوع وترتيب خاص أو ما يسمى بـ (Opus - sectille) لا تزال بعض بقاياه موجودة في الاكسدار الشمالية والغربية (انظر الشكل ٢٧) فيما يتعلق بالألواح التي تكسو الجدران الداخلية ووجوه الركائز فقد تأكد لنا وجودها من خلال آثار الثقوب التي تملأ تلك المساحات والبقايا المتكسرة التي عثرنا عليها في زوايا بروز الأساسات . وتصل كسوة البلاطات هذه في الحنية الرئيسية حتى إطار القبة . كذلك وجدنا بقايا ألواح مرمرية بلون رمادي أبيض تابعة لاطار المدخل الجنوبي للكنيسة والمدخل الشمالي الغربي للاكسدرا الشماليه وللمدخل الواقع بين البهو الشمالي والغرفة الشمالية .

تتمتع الاكسدرا الجنوبية بنفس الترتيب الذي اتصفت به الاكسدرا الشماليه التي كشفنا عنها خلال حفريات ١٩٥٦ . أما في الاكسدرا الغربية فقد عثرنا على قاعدة عمود في مكانها الأصلي الى جانب القاعدتين الشماليتين (انظر الشكل ١) بينما اختفى كل اثر للقاعدة الرابعة تتميز هذه الاكسدرا عن مثيلتها الشمالية والجنوبية بكونها تتمتع بفتحات أكبر للأقواس وارتفاع متساو لجميع الاعمدة مما يساهم في ابراز الاتجاه الطولاني للكنيسه .

هناك درج بعرض ٠٫٧٥ م يصعد للأعلى على كل جانب من الحنية الرئيسية (انظر الشكل ٢٦) . هذا ويقع مدخل الدرج العلوي في الطابق الثاني للغرف الجانبية وتماماً في فتحاتها التي تشرف على الحنية الرئيسية . يبدو الامر على ضوء ذلك وكأن الدرجين يقودان الى طابق آخر . من المحتمل أن تكون قد اتخذت شكل غرف علويه جانبية على شكل أبراج متعالية يستطيع المرء أن يلقي نظره للخارج من خلال نوافذها كما هو الحال في البازليكا (A) في الرصافة نفسها . ما هو ارتفاع هذه الابراج ، هذا ما لا نستطيع أن نجزم بأمره الآن . لم نستطع أن نكشف في الغرفة الجنوبية الملاصقة للحنية الرئيسية إلا عن نصف المحراب الكائن في الجدار الجنوبي ٢٫٣٥ م × ٠٫٩٢ م (انظر الشكل ٢) إلا أن هذا المحراب لا يتمتع إلا

بصفة تزيينية وليس لحفظ التوابيت كما هو الحال في المحراب الموجود في جدار البهو الشمالي الجانبي .

بخصوص إعادة انشاء المنافذ العليا لجدران الأبهاء فقد عثرنا على كثير من القطع الهامة التي تبين بأن تلك المنافذ العليا كانت مزينة من الداخل والخارج باكتاف مسطحة وذات أقنية (انظر الشكل ١٥) إذا دققنا مخطط هذه الكنيسة المركزية (انظر الشكل ٤) نجد أنه ناتج من تلاحم مخططين ، فالأول عبارة عن مخطط بازيليكا قائمة على الركائز ويتطرف حنيتهـا الرئيسية في الزوايا غرف جانبية مؤلفة من عدة طوابق علاوة عن تداخل البهوين الجانبيين في البهو المتوسط من ناحية الغرب . اننا نواجه هنا نفس النموذج الذي نعرفه في البازيلة (A) في الرصافة نفسها . أما المخطط الثاني فإنه عبارة عن مبنى مركزي بحت أو بشكل أدق ماهو إلا بناء مؤلف من أربع حنيات مع رواق مستدير . ان هذا النموذج معروف في مناطق مختلفة في سورية مثل حلب وسلوقيا وأفاميا وبصرى .

ان الميزة الجديدة التي يتصف بها هذا المبنى في الرصافة تكمن في عملية المزج بين البناء الطولاني والمركزي مع بعض لإخراج مبنى موحد .

القسم الثالث

الباب الشرقي لسور المدينة

يعتبر الباب الشرقي (انظر الشكل ٢٨) أحد الأبواب الرئيسية الأربعة لسور المدينة التي تختلف عن بعضها البعض في الحجم والصياغة المعمارية . يتألف مخطط هذه الأبواب بصورة عامة من منشأة بنائية مربعة الشكل تضم بين جدرانها باحة . تتقدم هـذه المنشأة سور المدينة وتلتصق به . اضافة الى ذلك يتجنحها ،من الطرفين برجان مؤلفان من عدة طوابق . هذا وتبلغ مساحة الباب الشمالي (٢١٫٠٥ م × ١٣٫٤٠ م) والجنوبي (١٩٫٥٥ × ٨٫٢٥ م) والغربي (١٦ م) مفتوح نحو الغرب والشرقي (١٣٫٠٥ × ٨٫٢٥ م) . بهذا يكون الباب الشرقي أصغرهم مساحة ولكن أغناهم في الصياغة والزخرفة المعماريه .

يرينا الشكل ٢٩ مخططاً أرضياً ومنظرا عاماً واعادة انشاء هندسية لكامل الباب الشرقي.
تتمتع واجهة السور من الداخل وفي القسم الملاصق للبوابه، بمحاريب تزيينية عميقة يتوسطها مدخل عالي وبعرض ٣،٠٣ م يقود الى باحة البوابة الشرقية، هذا وينطلق درجان يصعدان نحو الأعلى ويلتقيان في مصطبة فوق المدخل ويقودان عن طريق باب صغير منخفض الى الممر الدفاعي المتوسط الذي يتألف من رواق ذي أقواس يسير حول النصف الشرقي من سور المدينة.

خلال الحفريات التي أجريناها في المنطقة الواقعة بين مدخل السور وباحة البوابة الشرقية استطعنا الكشف عن عتبة البوابة الرئيسية ومن ثم ظهرت لنا آثار الدرجات التي سبق ذكرها أعلاه.

يتحلى القسم من السور الملاصق للبوابة الشرقية بواجهة غنية التفاصيل والزخرفة الفنية (انظر الشكل ٣٠ و ٣١) فمثلاً يتمتع المدخل المستطيل المؤدي الى الباحة، بساكف أفقي منحوت يعلوه قوس نصف دائري غني التفاصيل والصياغة الفنية. على يمين ويسار هذا المدخل توجد محاريب بعمق ٦٥ سم ذات أقواس تبرز مسافة ٥٥ سم عن الجدار وتستند نهاياتها على تيجان حاملة، أما في أسفل طرفي المحراب فتنتصب حوامل بارزة (Consol) ذات صياغة فنية. يبدو أن الفراغ الحاصل بين التيجان والحوامل كان مشغولاً بأعمدة اختفت فيما بعد. لم يبق من زخرفة التيجان الحاملة إلا شكل طاووسين تنتصب بينهما شجرة الحياة، أما الحوامل البارزة ووجوه الأقواس فتتحلى جميعها بأشكال الصليب.

يرينا الشكل (٣٢) واجهة جدار الباحة بتفاصيله وصياغته المعمارية الفنية، إلى جانب مقاطع هندسية لجدران البرج الشمالي والجنوبي اللذان يجنحان بناء البوابة الشرقيه. تبدي هذه الأبراج في عملية انشائها (Construction) وطريقة بنائها الشكلي، الصفات والميزات الأساسية لجميع نماذج الأبراج المربعة المعروفة، ففي البرج الجنوبي (انظر الشكل ٣٣) يوجد بروز لجدار بارتفاع ٤،٤٠ م على وجهه ثقوب لاستقبال عوارض السقف مما يشير الى سابق وجود أرضية لطابق آخر كان يقع على مستوى أرضية الممر الدفاعي المتوسط والممر المسقوف بعقد نصف اسطواني الذي يسير على طول جدران الباحة الامامية. على ارتفاع أربعة أمتار بعد

ذلك يوجد على كل ضلع من أضلاع البرج أربعة كونسولات كانت تحمل سقفاً آخر يقع على مستوى ارتفاع الممر الدفاعي العلوي . على ضوء ذلك أعتقد بأن الحجرة العلوية وحدها كانت مقببة ، أما السقوف المتوسطة فقد كانت من الخشب الى أن أزيلت فيما بعد ليستعاض عنها بسقف مقبب من الاحجار الكلسية الهشة .

أما الشكل (٣٤) فإنه يرينا مقطعاً هندسياً لمدخل السور الرئيسي والباحة مع جدرانها الامامية التي أصابها التخريب والهدم بشكل ملحوظ فمثلاً يصل ارتفاع أعلى نقطة في الجدران القائمة الى ١٢ م فقط .

القسم الرابع

الخزف الاسلامي في الرصافة

بقلم انطون ليجنر

اسفرت الحفريات التي أجريت في النصف الثاني أو الجنوبي من المبنى المركزي وخاصة الأقسام الشرقية منه (انظر الشكل ٣٥) عن ظهور أنواع من الخزف من باطن طبقات الردم المحفورة بين (A) و (D) . أما الكسور الخزفية والفخارية التي التقطت مباشرة من فوق سطح الأرض ومن بين أحجار الأساس الواقعة في الزاوية الشمالية الغربية وفي باحة الكنيسة الأمامية فانها تتمم أنواع الخزف التي ظهرت في الطبقة (A) . كذلك فإن الكميات الكبيرة من الكسور الخزفية التي ظهرت في البهو الجنوبي (E) تكمل لائحة نماذج الخزف والفخار الخاص بالرصافة .

لقد تم تنظيم الكاتالوج طبقاً لخواص ومميزات وطريقة صنع الخزف . هذا وترجع النماذج الموصوفة بين الرقم ١ - ١٧ الى الطبقات المحصورة بين (A) و (A1) .

رقم ١ : كسور سميكة الجدران ، مصنوعة من فخــار أحمر ، محززة ، غير مزججة ، زخرفة محفورة . لها نماذج مشابهة ظهرت في طبقة بفلسطين والتي ترجع الى ما بين القرن الرابع والسادس الميلادي .

رقم ٢ (اللوحة ٤٢) : — كسور سميكة الجدران ، من الفخــار الأحمر ، غير مزججة ، زخرفة محفورة .

رقم ٣ (اللوحة ٤٢) : — كسور من فخــار أحمر بلون الآجر ، غير مزججة ، زخرفة محفورة .

رقم ٤ (اللوحة ٤٢) : — كسور رقيقة الجدران ، من فخار رمادي فاتح ، غير مزججة ، زخرفة محفورة .

رقم ٥ (اللوحة ٣٦) : — كسور رقيقة الجدران ، من فخار رمادي فاتح ومصنوع من عجينة ناعمة وصافية الذرات ، غير مزججة ، خطوط وبقع حمراء وسوداء ، نماذج مشابهة ظهرت في خربة المنيا .

رقم ٦ و ٧ كسور سميكة ورقيقة ، من الفخار الأحمر ، مزججة بلون أخضر .

رقم ٨ كسور مصنوعة من الفخار الرمادي الفاتح ، مزججة بلون رمادي أصفر .

رقم ٩ كسور مصنوعة من الفخار الأحمر ، مطلية بألوان ترابية فاتحة ، الحافه مزججة بلون داكن .

رقم ١٠ (اللوحة ٤٤) : — مصنوعة من الفخار الأحمر ، مزججة من الجانبين بلون أصفر ، على الوجه الباطني تغصينات زخرفية بلون احمر بني .

رقم ١١ (اللوحة ٤٢) : — كسور إناء سميك الجدران ، من الفخار البني الأحمر ، خطوط متموجة مع صف من الأزرار تسير على سطح أفقي متحدب ، مزججة بلون التوركيز (مزيج من الأزرق والأخضر) . نماذج ظهرت في سامراء والمدائن ومنــاطق أخرى من الشرق الأدنى .

رقم ١٢ (اللوحة ٤٤) : — من الفخار الأحمر ، مزجج بلون أخضر ، خطوط وأشرطة منحنية .

رقم ١٣ (اللوحة ٤٣) : — من الفخار الأحمر ، مزججة بالأصفر ، هناك وهناك تسيل خطوط عريضة بلون بني على الوجه الباطني وبلون اخضر على الوجه الخارجي .

رقم ١٤ (اللوحة ٤٣) : — كسور سميكة ، من الفخار الأحمر ، الوجه القصر (الداخلي) مطلي ببقع خضراء وقرمزية مع خطوط بلون ترابي فوق أساس بلون ترابي (Ocker) ، أمثلة مشابهة موجودة في فخار ما بين النهرين الذي يعتبر تقليداً لخزف آسيا الوسطى .

رقم ١٥ (اللوحة ٣٧) : — من الفخار الأحمر ، على الوجه الداخلي زخرفة محفورة مؤلفة من خطوط متموجة ، اللون الأخضر يغلب على الوجه الخارجي ، أمثلة مشابهة من سامراء وتركستان الغربية .

رقم ١٦ (اللوحة ٤٤) : — كسور سميكة ، من الفخار الأحمر ، خطوط خضراء وبقع بنية طليت فوق أساس أصفر فاتح .

رقم ١٧ (اللوحة ٤٢) : — كسور من فخار أحمر ، مزججة بلون أصفر ، خطوط خضراء طليت على الوجه المقعر .

رقم ١٨ (اللوحة ٤٧) : — كسور فخارية حمراء ، غير مزججة ، زخرفة انجزت بطريقتي الحفر واللصق .

رقم ١٩ — ٢١ (اللوحة ٤٦ و ٤٧)) : — كسور فخارية حمراء ، غير مزججة ، زخرفة انجزت بطريقة الكبس .

رقم ٢٢ (اللوحة ٤٦) : — كسور فخارية فاتحة اللون ، غير مزججة ، زخرفة من الخطوط الرفيعة والأشرطة المتموجة على الوجه الخارجي .

رقم ٢٣ (اللوحة ٤٨) : — كسور فخارية بلون رمادي فاتح ، غير مزججة ، زخرفة على الوجه الخارجي انجزت بطريقة الكبس .

رقم ٢٤ (اللوحة ٤٨) : — كسور فخارية هشة وبلون فاتح ، غير مزججة ، زخرفة من الدممات انجزت بطريقة الكبس ، أمثلة مشابهة عثر عليها في بعلبك وسامراء .

رقم ٢٥ (اللوحة ٤٨) : — فخار هش وبلون رمادي فاتح غير مزجج ، زخرفة من المعينات الهندسية على الوجه المحدب انجزت بطريقة الكبس ، هناك زهرة في داخل كل معين .

رقم ٢٦ (اللوحة ٤٨) : — فخار بلون رمادى فاتح ، غير مزجج ، زخرفة على الوجه الخارجى انجزت بطريقة الكبس .

رقم ٢٧ (اللوحة ٤٧) : — فخار رمادى فاتح ، غير مزجج ، زخرفة على الوجه الخارجي انجزت بطريقة الكبس .

رقم ٢٨ (اللوحة ٤٧ ـ الشكل ٣٨) : كسور رقيقة ، من عجينة ناعمة الذرات ، لون رمادي فاتح ، زخرفه على الوجه الخارجي أنجزت بطريقة الكبس ، نماذج مشابهة عثر عليها في بعلبك وحماه .

رقم ٢٩ : ـ كسور فخاريه قاسية وبلون رمادي فاتح ، مزججة من الطرفين بلون أزرق داكن .

رقم ٣٠ : ـ كسور فخارية رمادية فاتحه ، مزججة من الطرفين بلون اسود فوق اساس بني .

رقم ٣١ (اللوحة ٤٥) : ـ فخار احمر ، الوجه المحدب مزجج بلون التوركيز فوق زخرفة محفورة .

رقم ٣٢ (اللوحة ٤٦) : ـ كسور رمادية فاتحة ، مزججة بلون توركيز فاتح مع خطوط داكنة من نفس اللون .

رقم ٣٣ (اللوحة ٤٥) : ـ فخار بلون احمر خفيف ومصنوع من عجينة ناعمة الذرات ، خطوط رفيعة مموجة وبلون بني داكن طليت على الوجه المقعر ، الوجه الخارجي (المحدب) مزجج بلون احمر ترابي .

رقم ٣٤ :ـ كسور سميكة ، مصنوعة من عجينة فخارية ناعمة الذرات ، شريط محفور بموج مع أشكال (×) محفورة بلون داكن على الوجه الخارجي ، مزججة بالأخضر من الداخل والخارج .

رقم ٣٥ :ـ الفخار رمادي فاتح . الوجه الداخلي مطلي بأشرطة زرقاء بلون الكوبالت مع بقع بلون المنغنيز فوق أساس أخضر ، الكل مزجج بلون شفاف .

رقم ٣٦ :ـ الفخار رمادي فاتح ، الوجه الداخلي مزجج بلون أزرق كوبالتي ، الوجه الخارجي طلي اولاً بطبقة زجاجية حليبية اللون ثم رسمت عليها بقع زرقاء بلون الكوبالت ثم غطيت أخيراً بطبقة زجاجية شفافة لا لون لها .

رقم ٣٧ :ـ الفخار أحمر ، رسومه من التفصينات النباتية بلون أصفر طليت على الوجه الداخلي .

رقم ٣٨ (اللوحة ٤٥ و ٤٩) :ـ الفخار فاتح اللون ومصنوع من عجينة ناعمة الذرات ، مزجج من الداخل والخارج بلون اخضر داكن ، أوراق النخيل على الوجه الداخلي ، الشكل ٣٩ الموجودة في المتحف الوطني بدمشق . له نماذج مشابهة وجدت في مناطق مختلفة من الشرق الأدنى وغالباً في الرقة والرصافة .

رقم ٣٩ (اللوحة ٤٥ و ٤٠) :ـ الفخار فاتح اللون ومصنوع من عجينة ناعمة الذرات ، مزجج من الداخل والخارج بلون أبيض حليبي أما الزخرفة فقد طليت بلون ازرق كوبالتي .

رقم ٤٠ (اللوح ٤٥ و ٣٩) :ـ الفخار أبيض ، الزخرفة بلون اسود فوق اساس أخضر مزجج بلون شفاف .

رقم ٤١ (اللوحة ٤٦ ، ٤١) :ـ الفخار فاتح اللون ، الأساس اخضر داكن ، الزخرفة بلون احمر بني وذات بريق معدني ، الشكل ٤١ الموجود لدى متحف دمشق له نماذج مشابهة عثر عليها في الرقة وحماة أضافه الى مثال آخر موجود في متحف الصناعات اليدوية في مدينة فرانكفورت على الماين .

رقم ٤٢ :ـ الفخار رمادي فاتح ، زخرفه بلون اسود فوق أساس أزرق كوبالتي وشريط كتابي على الحافة ، الكل على الوجه الداخلي ، أما الوجه الخارجي فقد طلي بلون التوركيز .

* * *

نستطيع أن نصنف أماكن النماذج الموصوفة أعلاه كما يلي : ــ
في الطبقة A الأرقام ٢ ، ٤ ، ٥ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٦ ، ١٧
في الطبقه A1 الأرقام ١ ، ٢ ، ٣ ، ٥ ، ٦ ، ٨ ، ١٠ ، ١١ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥
في الطبقة B الأرقام ٢١ ، ٢٢ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٤٠ ، ٤١
في الطبقة C الأرقام ٣١ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٤١
في الطبقة E الأرقام ٧ ، ٨ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢

* * *

ترجع اقدم الكسور المختارة والموصوفة سابقاً إلى القرنين السادس والسابع بعد الميلاد ، أما احدثها فتعود إلى القرنين التاسع والعاشر . لم نعثر في الطبقة (A) على أي نموذج لما يسمى بخزف الرقة مما يجعلنا نعتقد بأن المبنى المركزي بقي مطموراً بالطبقة (A) طيلة القرنين التاسع والعاشر . ولكن يبدو ان الرصافة عانت هزة أرضية في نهاية القرن الثامن الذي طمر الطبقات السفلية من الكنيسة . أما الأقسام العلوية من البهو الرئيسي فقد قاومت تلك الهزة وبقيت قائمة حتى القرنين الثاني عشر والثالث عشر حيث تساقطت وشكلت الطبقات العلوية (B. C. D.) وهذا ما تبين لنا من خلال نماذج الكسور الخزفية والفخارية التي ترجع إلى القرنين ١٢ — ١٣ والتي تبدي تبايناً واختلافاً جذرياً بينها وبين نماذج الطبقات السفلية ، على عكس كسور الطبقات السفلية لا تبدي نماذج الطبقات العلوية أية علاقة أو تشابه في الأسلوب مع خزف وفخار سامراء وسمرقند الذي يرجع الى القرنين التاسع والعاشر .

تتصف نماذج الطبقات العلوية بوجود نوعين بارزين هما :

النوع الأول : — جرار صغيرة ذات بطن وغير مزججة وعليها زخرفة دقيقة بارزة ومتنوعة انجزت بطريق الكبس . لقد سبق العثور بكثرة على نماذج مشابهة لهذا النوع في مناطق مختلفة من بلاد ما بين النهرين وسورية وآسيا الصغرى وفارس . جميعها تبدي اختلافاً جذرياً مع النماذج الجديدة وخاصة المطارات التي انتشرت في القرن الرابع عشر مما يجعلنا نرجع نماذجنا هذه الى ما بين القرنين الثاني عشر والثالث عشر وهذا ما تؤكده نماذج الخزف (النوع الثاني) المشابه لخزف الرقة التي وجدت بكثرة بجانب النوع الأول هذا . اضافه إلى ذلك لم نعثر في الرصافة على أي نموذج من الأسلوب الجديد الذي انتشر في القرن الرابع عشر .

النوع الثاني : ـ الفخار المزجج (الخزف) المعروف بخزف الرقة . احدث نموذج عثرنا عليه مثل الرقم ٤١ ـ خزف ذو بريق معدني ـ يشبه قطعة خزفية من صنع سلطان آباد في فارس ومؤرخه بسنة ١٢٦٨ ميلادية .

ولكن Vagn Poulsen ارجع الكسور التي وجدها في المنطقة (B IX) في حماة الى صناعة الرصافة (Faience dite de Resafa) فهل كانت هناك أفران لصناعة الخزف وخاصة هذه النماذج المحببة في الرصافة في زمن السلاجقة ، هذا ما لم نعثر عليه حتى الآن ولكن من يدري فربما ستقودنا الحفريات المقبلة في المنطقة إلى توضيح هذه الناحية الهامة .

وأخيراً لا بد من الإشارة لتأكيد ملاحظاتنا السابقة بأن آخر الأنباء التاريخية عن الرصافة التي جاء ذكرها في مؤلفات القرون الوسطى ترجع الى عام ١٢٨٣ ميلادية ثم انقطعت كلياً إلى أن جاء على ذكرها بعض التجار الانكليز عندما مروا بها عام ١٦٩١ ميلادية في طريقهم من حلب إلى تدمر .